الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

مقاييس علم النفس (ب) السعادة والانسانية

بقلم الاستاذ : حسنى طه شكيان

رأينا — فيما سبق بتوفيق الله تعالى — كيف تتكون عواطف الإنسان فتدفعه إلى ضروب شتى من السلوك قصد التوافق والتكيف بصورة مامع المجتمع ؛ وقد سمى — علماء النفس — الصورة التوافقية بين عواطف المرء المكتسبة واستعداداته الفطرية ، وقدراته العقلية — الفطرية والتعليمية — وصفاته الجسمية والمزاجية — سموا هذا التوافق بين هذه المقدارات بتكامل الشخصية ؛ كما حدثونا عن بروز عاطفة اعتبار الذات فى مستويات شتى من السلوك أرفعها قدراً ما صدرت فيه هذه العاطفة عن فكرة تخفيف آلام الإنسانية والعمل على إسعادها ، وذلك مستوى القادة الكرام ورأينا — مع مكدوجل — كيف ترتبط السعادة بفكرة تكامل الشخصية فى مستواها الأسمى حيث يندفع المرء فى سلوكه وتفكيره لتحقيق مثل عليا للإنسانية .

وقد قال تلميذه الدكتور عبد العزيز القوصى عند عرضه هذه الفكرة : ونستطيع أن نرى فى هذا المستوى القادة والأنبياء ..

وحقا — مارأوا — فإن أسعد أيام القادة يوم أن تحقق أفكارهم ومبادئهم ومخترعاتهم خيراً ومرحمة للإنسانية ، ولسان حالهم قول محمد الكريم رسول الإنسانية :

« افعل الخير مع أهله ومع غير أهله ، فإن أصبت أهله فبها ، وإلا فأنت أهل له »

أو قوله ،

« لا يكن أحدكم إمعة .. يقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن : وطنوا أنفسكم . إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن ترشدوهم وتنصحوا لهم » أو كنصيحة عيسى الكريم لحواريه « كونوا كشمس الله تشرق على

الأبرار والأشرار ، . ، أجل لقد قدموا الخير للإنسانية رغم ماعارضتهم السلطات الحاكمة ، أو بطشت بهم الجماعات الشاردة الضاله ، فكانوا كشمس الله العظيم تهب النور والحياة لكل الكائنات ، وكانوا كسحب السماء تهب الرى والحياة لجميع الخلائق دون تمييز ..

والإنسانية لا تدين فى تطورها وترقيها لأحد كما تدين لحكمائها ومرشديها وقادتها ومصلحيها ، وأساتها ومخترعيها ومن بين هؤلاء جميعا تقدس رسالات أنبيائها وعبقرياتهم الكريمة . . . أولئك الذين وسعوا الإنسانية فى أعماقهم ، وعاشوا لها فى نبضات قلوبهم ، وخطرات عقولهم ، وخفقات مشاعرهم ، فكانوا أكمل صورة للكمال البشرى ، وأجل فكرة لقدسية الحياة التى اصطفاها الخلاق الأعظم مظهراً أعلى لخلافته على الأرض دون خلقه جميعا .

ولنتساءل — فى شىء من التفصيل الواجب — : ماهى حاجات الإنسانية الأساسية فى ترقيها وتطورها نحو السعادة فى أعلى درجات الكمال البشرى ... وكيف تحصل عليها وتحققها ؟

لا شك أن الحياة مظهر جلال الصنعة فى الأرض وفى الكون . .

ولاشك أن هذه الحياة قبس الحى الأعظم المدبر للكون ومانح الكون مظهر الجلال والجمال فى حياته ..

ولا شك أن العقل إنما هو نافذة الحياة على روائع فى هذا الكون خافية من وراء مظاهر الجمال التى لا تجد ولا تعد ...

ولا شك أن سمو الحياة إنما هو فى ضروب من السلوك الاجتماعى الأخلاقى مما اصطلحت عليه الإنسانية — بالمثل العليا — فى حب وإيثار وتضحية بالغة وإخاء إنسانى شامل وتكافل حان كريم ...

ولا شك أن الإحاطة بكل ذلك مبادىء وأفكاراً ، وعقائد وأشواقاً وشريعة ونظاماً ، وحكمة واعية ، ومعرفة رائعة ... إنما هو أساس السعادة الإنسانية وشمسها الساطعة فى موكب الكمال ..

فمنذا الذى أحاط بكل ذلك ؟ وقدم للإنسانية كل أولئك ؟ معرفة وتطبيقاً لاشك — أيضاً — أن قادة الإنسانية جميعاً قد تعاونوا فى هذا السبيل بيد أن الصورة المتكاملة لكل هذه

المعارف لم يستقل بها أحد كالأنبياء ولم تجد لها أكمل رسالة من القرآن الكريم ، وأجل قائد من محمد الكريم (رسول الأنسانية ، وأسعد كائن على الإطلاق ..)

وبهذا شهد برنارد شو — كاتب إيرلندا الإنجليزى الشهير :

إنه لن يمر هذا القرن حتى تعتنق الإمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية ولو أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) بعث فى هذا العصر ، وكانت له الديكتاتورية على هذا العالم ؛ لنجح تماماً فى حل جميع المشكلات العالمية ، وقاده إلى السعادة والسلام . وبمثله قال الكثيرون فى كل عصر ومن كل أمة ...

والتاريخ شاهد عدل على كمال شخصيته التى وسعت الإنسانية منذ نعومة أظفاره وعلى غير مثال سابق أولا حق ، ثم فى رسالته الخالدة أروع الدليل ؛ وأوقع البراهين « يتيم فقير بين مجتمع من السادة والعبيد تشيع فيه الرذيلة والظلم والجهالة وقساوة الطباع ، وضراوة العادات أضعاف مايتخلله من خير وحق وفضيلة وكرم ونجدة ، ورعاية لحقوق الضعفاء .

مجتمع من البداوة المتحضرة ، والبداوة القبلية التى تقدس سفك الدماء لأوهى الأسباب ولا تنام على ضيم أو ثأر فما تزال تضطرب نفوسهم حتى يملئوا الأرض إجراماً ونكراً من الغارات وهتك الحرمات ، وسلب الأموال ...

هذا إلى جمود عقلى وضلال عقيدى ، وتفكك اجتماعى كبير ...

يتيم فقير وسط هذا المجتمع ينبغى أن يكون كواحد من هؤلاء اليتامى المضيعين ، والفقراء المستضعفين ، والاجراء المحرومين ، والأناسى العاديين ...

ولكنه يخرج على كل ظنة وترقب وينطبع على كل كمال فى الخلق من غير مثال محتذى بين يديه اللهم إلا مجموع فضائل متفرقة بين الناس لا يكاد يجتمع منها كثير فى شخص واحد ، ولا تفى كلها بمثل يقتدي به .

إنه جميل السمت والمظهر والمخبر ، رقيق الطباع . لين الجانب ، كريم الفعال ، صادق القول ، عفيف الطرف ، وفى العهد ، حفيظ الوعد ، أمين السر ، راعى الحرمات كريم الرد ، سمح المعاملة ، حكيم التصرفات ،

مسموع الكلمة ، نفاذ النظرة ، محبوب لأول لقاء ، مرعى الجانب ، موقر الحضور والغيبة ، مجاب الدعوة ، إذا قال أنصتت القلوب لحديثه وإذا حكم ففى حكمه الشفاء من معركة دامية أو فض منازعة كما فى قضية وضع الحجر الأسود ، وإذا تخاصم الناس كان فى جانب الحق يعضد أهله ويؤازرهم ، وإذا اشتركوا فى شرب ولهو ، أو سجود لصنم وعكوف على ضلال كان أبرأ الناس منه وأشدهم اشمئزازا من هذا الصنيع .. إنه كما قالت خديجة : والله لن يخزيك الله أبداً — وحجتها — لأنك تحمل الكل وتقرى الضعيف ، وتكسب المحروم ، وتعين على نوائب الدهر .. وكذلك كان قبل بعثته .. وتأخذ الإنسانية من قلبه الفتى حيزاً كبيراً يأسى لضلالها ، ويتألم لشقوتها وفرقتها ويحزن لظلم أقويائها ، ويتفطر أسى لحروبها ومنازعاتها ، فيرى كثيراً وهو مطرق فى شعاب مكة مهموم بما يدور من حوله ، ويشكو بعض ذلك ويتحدث عنه فى الأهل « ياعمة .. والله مابغضت شيئاً كاللات والعزى وما أدرى لماذا يعكفون عليهما وهما لا يسمعان ولا يبصران ولا يغنيان عنهم شيئاً ... وكانت قد سألته لماذا لا يشترك مع قومه فى أعياد أصنامهم وقرابينها .. » ويشترك انتصاراً للحق فى حرب الفجار بتقديم السهام لاعمامه وهو ابن أربع عشرة ، ويقول عن حلف الفضول الذى عقد انتصاراً للحق .. ما أحب أن لى بحلف ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت إليه لأجبت ...

ولم تشغله الإنسانية وحدها ، بل شغله مصدرها وربها ، ومالك أمرها ولم تشغله الأرض بحدودها ، فخلق فى سموات الوجود ونيراتها ، وملكوتها وأسرارها .. وإليك الدليل ومن حياته ومن أول فقرات نزلت عليه من القرآن العظيم رسالته لهذه الحياة :

لقد اعتزل الناس كثيراً ، واتخذ لنفسه من غار حراء محرابا يتصل فيه بالملكوت الأعلى المحيط به ، يستلهم قضية الإنسانية وإسعادها ، ويستنبئه عن السموات العلا وأسرارها . فكان أن نزل عليه الحق — بعد خمس عشرة سنة من الإعداد النفسى ، والتفكير المتواصل :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك

الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ...

وراجع معى كيف أجيب عما فى نفسه ... فرسالته التعرف والقراءة فى صحيفة الوجود كله مستعينا بربه الذى خلق هذا الكتاب المحيط فى الكون العجيب ، فتلك رسالته فى معرفة أسرار الوجود .. ثم ليأخذ من قضية الإنسان صفحات رائعة للحق فهو أعجب كائن يحمل صورة القدرة الكبرى للذى خلقه من علق ، وصوره فأحسن تصويره وركب فيه العقل خزانة المعرفة ، وجعل سبيله إليها القلم يلهمه به علم مالم يكن يعلم فى كتاب الكون كله ، وفى أعماق الإنسان ورسالته فى الحياة ..

وفى كل ذلك عاش محمد الكريم من قبل رسالته إنساناً فياضاً بالحياة ثرياً بأسمى العواطف والمشاعر التى تتلمس أسرار الوجود ، وتأسى لقضية الإنسان فى دنياه مالم تتلقه يد الحكمة الربانية ؛ فتعلمه مالم يكن يعلم ، وتهديه الصراط المستقيم عن بصيرة . ونسوق هنا دليلين من شهادة قومه :

(١) دعاهم للإسلام .. فناداهم : يابنى فهر .. يابنى هاشم .. يابنى عبد مناف .. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ ، قالوا : نعم ماجربنا عليك كذبا قط ..

فما جربنا عليك كذبا قط . وإنك فينا لصادق ، وإنك فينا لأمين شهادة التاريخ على إنسانية محمد الصافية ، ومثاليته منذ صباه ...

(٢) وناصبوه العداء ثلاث عشرة سنة حتى تآمروا على قتله فهاجر ليلا من مكة ، وترك من خلفه عليا ليرد الودائع إلى أهلها : ودائع المشركين من أعدائه الذين لم يجدوا فيما بينهم رجلا يعلو بإنسانيته فوق كل عداء وخصومة كمحمد الأمين ...

هذا هو محمد الكريم قبل بعثته مثل أعلى لتكامل الشخصية ، فى نفس زكية ، وخلق قويم ، ومشاعر فياضة محيطة بالأنسانية ، وعبقرية متفتحة مستقصية لأسرار الوجود ، وحكمة حصيفة تفصل فى أكبر الخصومات وهى ماتزال فى مهد المعرفة .. بيد أن هذا لا يجعل منه مثل الإنسانية الأعلى من فوق الأنبياء جميعا ، فهذه سطور حياة كريمة مكرورة عند كل الأنبياء — تقريبا —

فلنبحث عن شخصيته ورسالته فى الحياة ؛ وصنيعه لسعادة الحياة .. فذلكم مقياس التفاضل بين القادة والأنبياء .. فإلى لقاء كريم إن شاء الله